﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡۚ وَإِنَّ فِرۡعَوۡنَ لَعَالٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٨٣﴾ [يونس: 83]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أهلُ الإيمانِ في كلِّ وقتٍ قليلٌ عددُهم، كبيرٌ عندَ اللهِ قدرُهم

لَمّا حكى الحقُّ سبحانَهُ أنّهُ أبطلَ السِّحرَ، وأنّه من عملِ المفسدينَ، وأحقَّ الحقّ بكلماتِه، بيّنَ أنّهُ معَ معاينةِ المعجزاتِ الخارقةِ الّتي جاءَ بها مُوسى، إلّا أنّهُ لمْ يؤمنْ بهِ مِن ذريَّة قومِه إلّا نفرٌ قليلٌ؛ تسليةً للنبيِّ محمدٍ ﷺ، لما كانَ يرى منْ إعراض قومِه عنْ دعوتِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: أصْلُ (ذرّ) يَدُلُّ على لَطافَةٍ وانتشارٍ[2]، ومَصْدَرُه: ذَرَرْتُ، وهو أخذُك الشَّيءَ بأطراف أصابعك تَذُرُّهُ ذَرَّ المِلْحِ المَسْحُوقِ على الطَّعَامِ[3]. والذُّرِّيَّةُ: الخَلْقُ والنَّسْلُ، مَأْخوذَةٌ مِن الذَّرْءِ، فتقول: ذَرَأَ اللّه الخَلقَ، أيْ: خَلَقَهُم، وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُهُ[4]. وقِيل: هو مأخوذٌ مِنَ الذَّرِّ، وهو: النَّشْرُ، فيُقال: ذَرَّ الشَّيءَ، يَذُرُّهُ، أيْ: نَشَرَهُ. أو مِنْ صِغارِ النَّمْلِ؛ لأنَّ اللّه أخْرَجَ الخَلْقَ مِن صُلْبِ آدَمَ كَالذَّرِّ[5]. والجَمْعُ: الذَّراري والذُّرِّيّاتُ. والمقصود من ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ في الآية: نسلُ الإنسان مِن ذُكورٍ وإناثٍ.

2) ﴿يَفْتِنَهُمْۚ﴾: أصْلُ الفِتْنَةِ مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[6]، يُقالُ:

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (ذرر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ).
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذرّ - ذرر).
(6) الخليل، العين: (فتن).

فَتَنْتُ الذَّهَبَ، أيْ: أحْرَقْتُهُ بِالنّارِ؛ لِتَمْيِيزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَدِيءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّانَ، وَكَذَلِكَ الشَّيْطَانُ[1]. والفَتْنُ أيضًا: إدْخَالُ الرَّوْعِ وَالاضْطِرَابِ على العَقْلِ؛ بِسَبَبِ تَسْلِيطِ مَا لَا تَسْتَطِيعُ النَّفْسُ تَحَمُّلَهُ[2]، والفِتْنَةُ: الابْتِلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، يُقالُ: فَتَنْتُهُ، أفْتِنُهُ، فَتْنًا وفُتُونًا: إذا امْتَحَنْتُهُ[3]. والمقصود في الآية: إدْخَالُ الرَّوْعِ وَالاضْطِرَابِ على العَقْلِ.

3) ﴿لَعَالٍ﴾: أصل (علو) يَدُلُّ على السُّمُوِّ وَالارْتِفَاعِ، لا يَشِذُّ عَنْهُ شَيْءٌ[4]، قال الخليلُ: "أصْلُ هَذَا الْبِنَاءِ الْعُلُوُّ. فأمَّا العَلاءُ فالرِّفْعَةُ. وَأمَّا العُلُوُّ فَالعَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ. يَقُولُونَ: عَلَا الْمَلِكُ فِي الْأَرْضِ عُلُوًّا كَبِيرًا. قالَ اللّه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: 4]، ويَقُولُونَ: رَجُلٌ عَالِي الْكَعْبِ، أيْ: شَرِيفٌ"[5]، والعُلْوُ: ضِدّ السُّفْل، والعُلْوِيُّ والسُّفْلِيُّ المنسوب إليهما[6]. والعُلُوُّ في الآية مُستعارٌ لِلغَلَبَةِ والاستِبدَادِ.

4) ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾: أصْلُ الإسْرَافِ: مجاوزةُ الْحَدِّ، وَالْإِغْفَالُ - أيْضًا - لِلشَّيْءِ. يُقَالُ: أسْرَفَ يُسْرِفُ إسْرَافًا وَسَرَفًا، أيْ: جَاوَزَ الحَدَّ وَلَمْ يَعْتَدِلْ، وَضِدُّهُ: القَصْدُ وَالاعْتِدَالُ[7]، وَأمَّا الْإِغْفَالُ: فَقَوْلُ الْقَائِلِ: مَرَرْتُ بِكُمْ فَسَرِقْتُكُمْ، أيْ: أغْفَلْتُكُمْ[8]. والإسْرَافُ أيْضًا: التَّبْذِيرُ، وَالمُسْرِفُ: المُبَذِّرُ[9]. وَيُطْلَقُ الإسْرَافُ - أيْضًا - عَلَى الإتْلَافِ وَالتَّضْيِيعِ، تَقُولُ: سَرِفَ الطَّعَامُ؛ أيْ: ضَاعَ وَتَلِفَ[10]. والمُرادُ بالإسراف في الآية: تَجَاوُزُ حَدِّ الاعْتِدَالِ الْمَعْرُوفِ فِي فِعْلٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه لم يُؤمِنْ لِموسى عليه السلام - مع ما أتى به مِنَ الحُجَجِ والأدِلَّةِ على صِدقِه

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فتن).
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 7/91.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علو).
(5) الخليل، العين: (علو).
(6) الرّاغب، المفردات: (علا).
(7) الخليل، العين: (سرف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سرف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (سرف).
(10) مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الوسيط: (سرف).

– إلَّا عدَدٌ قليلٌ مِن شَبابِ قَومِه من بني إسرائيلَ، وهم خائفونَ مِن فرعونَ وأشرافِ قَومِهم أن يَفتِنوهم بالعذابِ، فيصدُّوهم عن دينِهم، وإنَّ فِرعونَ لَجبَّارٌ مُستكبِرٌ في الأرضِ، وإنَّه لَمِن المُتَجاوزينَ الحَدَّ في الكُفْرِ والفَسادِ[1].

الصِّدِّيقون قليلون في كلِّ زمان، وإيذاءُ المصلحين لا يخلو منه أوانٌ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، الآيةُ هنا موصولةٌ بالفاءِ بما قبلَها لإفادةِ السّببيّةِ، أو أنّها مفرّعةٌ على ما سبقَ، فإنَّ إصرارَ فرعونَ ومَن شايعَهُ على الكفرِ وعدمِ التّصديقِ بمُوسى عليه السلام بعدَ أنْ خابَ سَحَرتُه وخسروا، وبعد ظهورِ الحقِّ وانبلاجِه، ثمَّ عزمِه على قتلِ مُوسى بقولِه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: 26]، فكلُّ ما سبقَ أشاعَ الرُّعبَ في بني إسرائيلَ[2].

إصرارُ فرعونَ وقومِهِ على الكفرِ بعدَ ظهورِ الحقِّ أوقعَ الخوفَ في بني إسرائيلَ

والآيةُ تفريعٌ على ما سبقَها مِنَ المقاولةِ والمحاورةِ بينَ مُوسى وفرعونَ، ومَن معه مِن قومِه وسَحَرَتِه، بعدَ أنْ رأى أولئكَ القومُ مِن ظهورِ الحقِّ على يدِ مُوسى؛ إلّا أنَّ فرعونَ ومَن سارَ في ضلالِه لمْ يؤمنوا بما جاءَ به[3] عليه السلام جهلًا واستكبارًا.

لم يؤمنْ فرعونُ ومَلَؤُه بمُوسى رَغمَ ظهورِ الحقِّ على يَدَيْه

والآيةُ معطوفةٌ بالفاءِ على ما سبقَ، معَ أنَّ ما سبقَها بمنزلةِ العَدَمِ المستمرِّ؛ فإنَّ النّفيَ بـ (ما) هو منْ نحوِ قولِكَ: وعظتُهُ فلمْ يتّعظْ، وإنّ دوامَهم على ضلالهم بعدَ وُرودِ ما يُوجِبُ الإقلاعَ عنه هوَ فعلٌ جديدٌ حادثٌ، والمعنى: أنّهُ لمْ يؤمنْ لموسى عليه السلام برؤيةِ تلكَ البراهينِ السّاطعةِ إلّا نفرٌ قليلٌ[4].

لم يتّعظوا بانجلاءِ الآياتِ الباهراتِ وظهورِ الحقّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/250، والواحديّ، البسيط: 11/285، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/370.

(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/383.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/258.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

كِـبْرُهـم علّة إصـرارهـم على الكُفر

والآيةُ معطوفةٌ على ما سبقَها بالفاءِ المفيدةِ التّرتيبَ؛ فعُتوُّهم في ضلالتهِمْ وتيههم سببٌ لعدمِ إيمانهِمْ؛ فلمْ يؤمنْ لموسى ﷺ إلّا ذريةٌ قليلةٌ منْ قومهِ[1].

آمنَ بموسى أوّلَ مبعثِهِ قليلٌ مِنَ الشُّبَّانِ أبناءِ الخائفين مِن فرعونَ

وتحتملُ الفاءُ العطفَ فحسبُ لا التّرتيبَ، وذلك بعطفِ هذهِ الجملةِ على سابقتِها، على جعلِ الهاءِ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ عائدةً على مُوسى، أيْ: أنَّ الآيةَ تصفُ حالَ موسى أوَّلَ بعْثَتِه حينَما لمْ يُؤمنْ به إلّا قليلٌ مِنَ الشُّبَّانِ، وكانَ آباؤهمْ تحتَ خوفٍ وهَلَعٍ منْ فرعونَ ومَلَأ بني إسرائيلَ؛ فالضّميرُ في الملأ يَعُودُ على الذُّرّيّة، فتكونُ الفاءُ عاطفةً لا مُرتِّبةً[2].

بلاغةُ الإيجازِ بالقَصرِ:

حصرُ المؤمنينَ في ذُرِّيّـةٍ مِـنْ قومِ مُوسى يُفيدُ أنّ غيرَهم لمْ يؤمنُوا البتّةَ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مقامٌ فيهِ إيجازٌ بالقصرِ، فالمعنى أنّهُ حصرَ الإيمانَ في ذرِّيَّةٍ مِنْ قومِ مُوسى ﷺ، وهو يفيدُ انتفاءَ الإيمانِ عن غيرهِمْ[3]، وهو المعنى المُرادُ مِنَ الآيةِ على وجهِ التَّمامِ.

بلاغةُ حذفِ إلقاءِ مُوسى عصاهُ، والتقامِ ما ألْقَوهُ:

حذفَ ما حذفَ تعـويـلًا على ذِكْرِهِ في مواضعَ أخـرى، وإيـثـارًا للإيجازِ

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ معطوفٌ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ فصّلَ فيها في مواضعَ أُخرى مِنَ الكتابِ الكريمِ على تقديرِ: (فألقى عَصَاهُ فَإِذَا هيَ تلقف ما يأفِكون) ونحوِهِ مِنَ المعاني الدّالَّةِ على آياتهِ وبراهينهِ، وإنّما لم يُذْكر هنا تعويلًا على ما سبقَ، وإيثارًا للإيجازِ[4].

أظهرَ إعراضَهُم تشبيهًا لهم بحالِ مُشركي مكّةَ

وقد حذفَ أمرَ إلقاءِ مُوسى عصاهُ ثمَّ التقامِها ما ألْقَوهُ مِن سِحرِهم، وهو ما حصلَ بينَ المحاورةِ والإعراضِ عن دعوتهِ ﷺ،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/136.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/258.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

وسببُ ذلكَ أنَّ الغرضَ الّذي سيقت لأجلِه الآيةُ غيرُ متعلِّقٍ بذلكَ المحذوفِ، بل إنَّ المرادَ هو تصميمهم على الإعراضِ؛ فهو على إرادةِ تمثيلِ أعمالهم بحالِ المشركينَ من أهلِ مكّةَ[1].

وجهُ تعديةِ الفعلِ ﴿ءَامَنَ﴾ باللّامِ:

معنى الإيمان التّصديق والإذعان

والفعلُ ﴿ءَامَنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ بمعنى: صدّقَ؛ فكانَ حقّهُ أن يتعدّى بنفسِه[2]؛ لكنّهُ جاءَ هنا مُتعدّيًا باللّام؛ لأنَّه مِنَ الأمانةِ، ومعناهُ: التّصديقُ والإذعانُ لهُ، لا على معنى جعْلِه في مأمنٍ بانتفاءِ الخوفِ عنهُ[3].

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾:

زيدت اللّامُ دفعًا لتوهّمِ التباسِ الفعلِ (آمَنَ) بالفعلِ (آمَنَهُ)

اللّام في قولِه: ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾ لامُ التّبيينِ[4] دخلتْ على المفعولِ لتقويتِه أوّلًا، ورفعِ التّوهّمِ في الفعلِ ﴿ءَامَنَ﴾ بمعنى: صدّقَ، أن يكونَ مُلتبسًا بالفعلِ (آمَنَهُ) بمعنى: جعلهُ في مأمنٍ[5]، لو وُصِلَ الفعلُ إلى مفعولِه مِن دونِ اللّام، وهو غيرُ مقصودٍ؛ بلِ القصدُ مَن يؤمنُ لهُ، أي: يُصدِّقُهُ ويُذعنُ لهُ.

نُكْتَةُ التّصريحِ باسمِ ﴿لِمُوسَىٰٓ﴾ عليه السلام:

إيمانُهم لموسى بسببِ فِعْلِه، ولا يهتدي بالآياتِ كلُّ ضالٍّ خارجٍ عن إرادة الله

وجهُ التّصريحِ باسمِ مُوسى عليه السلام؛ أنَّ هدايتَهمْ وتصديقَهمْ كانَ بسببِه، وأنّ الآياتِ قد لا تكونُ سببًا للهدايةِ؛ إنّما الأمرُ منوطٌ بإرادتِه تعالى ومشيئتِه[6] ﷻ.

بلاغةُ الاستثناءِ في الآيةِ:

ما آمنَ لموسى إلّا بعضٌ مِن أولادِ قومِه

قولُه تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ مُشتملٌ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/258 - 259.
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أمن).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/259.
(4) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 292.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/259.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

الاستثناء المُفَرَّغ[1]، فإنّه لم يؤمِن لموسى إلّا طائفةٌ مِن ذَراري بني إسرائيل؛ أي: أولادٌ مِن أولاد قومه، أمَّا الآباءُ فحمَلَهم خوفُهم مِن فرعون على عدم الإيمان[2].

في تقليل عدد المؤمنين تسليةٌ للنَّبيِّ محمّدٍ ﷺ

ويُستفادُ من جملةِ الاستثناءِ معنى الحصرِ؛ فإنّ معنى (ما قامَ إلّا زيدٌ)؛ أي: لم يقمْ غيرهُ[3]، والمعنى: أنّهُ لمْ يؤمن إلّا هؤلاءِ، وفيهِ تقليلٌ، وفي هذا التّقليلِ تسليةٌ للرّسولِ ﷺ؛ فقدْ كانَ يغتمُّ لإعراض قومهِ واستمرارهِم على كفرهِم وضلالهم؛ ففي هذهِ التّسليةِ بيانُ أنَّ ذلكَ شأنُ الأنبياءِ، وأنّ ما ابتُلِيَ بهِ موسى أعظمُ؛ فإنّهُ أرَى قومَهُ مِنَ المعجزاتِ رأيَ العينِ، ومعَ ذلكَ ما آمنَ منهم إلّا قليلٌ[4]، وهذا دأبُ المُصلِحين بشكلٍ عامٍّ، والرُّسلِ بشكل خاصٍّ، وفي قِصَّة نوحٍ عليه السلام وغيرِه مِنَ الأنبياء مثلُ ذلك.

دلالةُ التّعبيرِ بالذّرّيّةِ:

الصّغارُ هم الأسرعُ إلى قبولِ الهدايةِ

عبّرَ البيان القرآنيُّ عنِ القلّةِ القليلةِ الّتي آمنتْ لموسى بلفظِ الذُّرِّيَّةِ، وهمُ الصِّغارُ مِنَ الأولادِ والشُّبّان، وهم أسرعُ مِن غيرِهم في القبولِ للتّوفيقِ الإلهيّ؛ حيث لم تتلوّثْ أرواحُهم بعبثِ الدّنيا وأهوائِها، وهم أهل لأن تُذَرَّ فيهم البركة[5].

توجيه جمعِ الذُّرّيّة:

همُ الأحداثُ مِنَ الشُّبّان، أو هم قومُ فرعونَ، أو همُ الصّغارُ والكبار معًا

عبّرَ عنِ الذّرّيةِ بالجمعِ؛ لأنّهم الأحداثُ مِنَ الشّبابِ والمراهقينَ، وقدْ يُطلقُ على الصّغارِ والكبارِ من بابِ العُرْفِ، ويقعُ على الواحدِ والجمعِ، وقيلَ: هم قومُ فرعونَ إلّا أنَّ منهُمْ منْ كانَ يكتمُ إيمانَهُ خوفًا[6].

(1) "إذا استثنيتَ بـ (إلّا) من كلام منفيٍّ غيرِ تامّ، وذلك بأن يكون ما قبل (إلّا) مُحتاجًا إلى ما بعدها". يُنظر: ابن يعيش، شرح المُفصّل: 2/67، أو أنّ (إلّا) لا أثر لها في الإعراب.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/363، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/157.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

(6) رضا، تفسير المنار: 11/383.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾:

حرفُ الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ دالٌّ على التّبعيض، أي: من قوم مُوسى ﷺ؛ إذ كان هو نفسُه مِن أبناءِ إسرائيلَ[1]، وتحتملُ أن تكونَ للابتداءِ، والتَّبعيضُ مُستفادٌ مِنَ التّنوينِ[2].

المؤمنون هم بعضُ قومِ موسى

توجيهُ نسبةِ القومِ، وعودُ الضّميرِ فيه:

في قولِه: ﴿ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾، الهاءُ المتّصلةُ في ﴿قَوْمِهِۦ﴾ تعودُ على مُوسى ﷺ، والمُرادُ بالقومِ: المؤمنونَ مِن بني إسرائيلَ، الّذينَ توالدوا في مصرَ بعدَ دخولِهِ ﷺ إليها، أو أولادُ الّذينَ أُرسلَ إليهم مُوسى بعدَ هلاكِ آبائِهم بطولِ الزّمانِ[3].

الهاءُ راجعةٌ إلى مُوسى، والقومُ هم مؤمنو بني إسرائيلَ، أو أولادُ الّذينَ أُرْسِلَ إليهم

يحتملُ معنى: ﴿مِّن قَوْمِهِۦ﴾ أنْ تكونَ الهاءُ راجعةً إلى فرعونَ، وهم في ذلكَ على ضَرْبيْنِ؛ مُعيَّنٌ وغيرُ مُعيَّنٍ، فأمّا المُعيَّنُ: فمنهُم امرأةُ فرعونَ، ومؤمنُ آلِ فرعونَ، وخازنُ فرعونَ، وامرأةُ خازنِه، وماشطتُهُ، وغيرُ المُعيّنِ: وهم نحو سبعينَ بيتًا مِنَ الأقباطِ مِن آلِ فرعونَ، أمهاتُهُم مِن بني إسرائيلَ[4].

الهاءُ راجعةٌ إلى فرعونَ، والقومُ على ضَرْبيْنِ مُعيَّنونَ وغيرُ معيَّنينَ

دلالةُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾:

يدلّ الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾ على المعيّةِ، مُكافئًا لـ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: 177]، أي: معَ حُبّهِ، والمعنى في الآيةِ محلّ البحثِ؛ أي: إنّ إيمانهُم مُتحقّقٌ معَ خوفِهم مِن فرعونَ وقومِه[5].

آمنوا لموسى معَ خوفِهم من فرعونَ ومَلَئِهِ

والحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ دالٌّ على الاستعلاءِ في أشهرِ معانيهِ[6]، وقولُه:

(عـلى) يُفيدُ الاستعلاءَ، فهم مستعلون فوقَ الخوفِ

(1) الماتُريديّ، تأويلات أهل السنّة: 6/75.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/157.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/260 - 261.
(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/261.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/259، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(6) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 190.

﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ يفيدُ معنى الاستعلاءِ والتّمكُّنِ؛ فيصيرُ المعنى: كأنَّهم مُستعلونَ فوقَ الخوفِ، مُتمكّنونَ منه، يسيرُ بهم أنّى شاءَ في دهاليزِ المواجعِ والآلامِ[1].

سرُّ تنوينِ الخوفِ، وتنكيرِهِ:

التّنوينُ والتّنكيرُ للتّعظيمِ، أي كانوا على خوفٍ عظيمٍ من فرعونَ ومَلَئِهم

وردَ الخوفُ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ﴾ مُنكَّرًا مُنوَّنًا، والتَّنوينُ والتَّنكيرُ هنا لإفادةِ التَّعظيمِ، أي: أنّهم كانوا على خوفٍ عظيمٍ، وفزعٍ وقلقٍ شديدَيْن مِن فرعونَ ومَلَئِهم[2].

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾:

خوفهُم حاصلٌ بسببِ فرعونَ

﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾ واردةٌ على معنى السَّببيَّةِ والتّعليلِ، وهو مِن معانيها[3]؛ فإنّهُ لمّا "كانَ إنكارُ الملأِ هو بسببِ فرعونَ أن يَسلبَهم رئاستَهُم؛ انحصرَ الخوفُ فيه"[4]، فقولهُ: ﴿مِّن فِرۡعَوۡنَ﴾؛ أي: بسببِ فرعونَ.

وجهُ التّصريحِ باسمِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾:

لمّا كان الضّميرُ في (قومِهِ) عائدًا على مُوسى، ذكرَ اسمَ (فرعونَ) تصريحًا

في التّصريحِ بلفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ وجهٌ ومعنى، وهو أنَّ الضّميرَ في ﴿قَوۡمِهِۦٓ﴾ راجعٌ إلى مُوسى المُتحدَّثِ عنهُ في الآيةِ، وكونهُ أقربَ مذكورٍ، فلو كانَ الضّميرُ عائدًا على فرعونَ لمْ يظهرْ لفظهُ تصريحًا، ولكانَ التَّركيبُ (على خوفٍ منهُ) بالإضمارِ[5].

في إظهارِ لفظِ (فرعونَ) آيةٌ على تمكُّنِ الخوفِ منهُ عندهُم

في إظهارِ لفظِ ﴿فِرۡعَوۡنَ﴾ مزيدُ عنايةٍ بهِ مِن جهةِ الخوفِ والهَلَعِ منهُ، "فالخوفُ مِن فرعونَ مُتمكِّنٌ لا يحتاجُ معهُ إلى إضمارٍ"[6]، وإنّ في الإظهارِ استحضارَ الهيئةِ والجُثّةِ ممّا يُلقِي مزيدًا مِنَ الخوفِ؛ لأنّ الخوفَ متعلِّقٌ حقيقةً بالأفعالِ لا الأعيانِ.

(1) السّعراويّ، تفسير السّعراويّ: 10/6149.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/158.
(3) ابن هشام، مُغني اللّبيب، ص: 421.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(6) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/137.

بيانُ عطفِ ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ على ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عطفَ (الملأ) على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بقولِه: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾؛ فالمعلومُ أنّ مع فرعونَ مَن يُتابعهُ ويأتمرُ بأمرِه، ويَرجِعُ إلى قولِه، ويتَّخذُهُ مَرجعًا لهُ[1].

مَلأُ فرعونَ هم أصحابهُ الّذينَ يُطيعونه، والرّؤساءُ الّذينَ يَرجِعُ إلى قولِهم

نُكْتَةُ إضافةِ (المَلأ) إلى ضميرِ الجَمْعِ، وعَودُ الضّميرِ فيهِ:

قال: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ عاطفًا بما اتّصلَ بضميرِ الجمعِ على ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهوَ واحدٌ، وفي ذلك خلافٌ لمقتضى الظّاهر، ونُكْتَتُهُ أنّ ذِكْرَ الملكِ بخَوفٍ أوْ نحوِه ينصرفُ الذّهنُ إليهِ على وجهِ التّعيينِ، وإلى منْ معهُ أيضًا، ألَا تراهُمْ يقولونَ: قَدِمَ الخليفةُ فَكَثُرَ النّاسُ، أي: إنّهمْ زادوا بـ مَن معهُ[2].

إذا ذُكِرَ الملكُ بخوفٍ أو نحوِه، ذهبَ الوَهْمُ إليهِ وإلى مَن معه

ويُحتمَلُ عودةُ الضّميرِ في قوله: ﴿وَمَلَإِيْهِمْ﴾ إلى الذّريةِ، والمعنى: على خَوفٍ مِن فرعونَ ومِن قومِهم؛ فهم بقيّةُ القومِ الّذينَ غابوا عنِ المشهدِ؛ خوفًا مِن أن يصيبَهم الغضبُ والأذى لإيمانِهم بموسى، ولِظَنّهم بمؤاخذةِ فرعونَ لهم، لما عُهِدَ مِن عادةِ الجبابرةِ في أخْذِ الجميعِ بجريرةِ بعضِهم[3].

الضّميرُ عائدٌ للذُّرّيةِ الّذين هم بقيّةُ القومِ الغائبينَ عنِ المشهدِ

ويُحتمَلُ عَودُ الضّميرِ إلى ﴿فِرْعَوْنَ﴾، وجاءَ بهِ مجموعًا لِمَا اعتيدَ مِنَ التّعبيرِ بهِ في ضمائرِ العُظَماءِ، ولا يأباهُ المقامُ؛ فهو مقامُ بيانِ عُلُوٍّ في الفسادِ والتّسلُّطِ، والغلوِّ في الشّرِّ والعدوانِ[4].

الضّميرُ لـ(فرعونَ)، والجمعُ تعبيرًا عنِ العَظَمةِ

توجيهُ العُدُولِ عنِ المصدرِ الصَّريحِ إلى المُنْسَبِكِ:

عدَلَ عنِ المصدرِ الصَّريحِ (فتنته) أو (فتنة فرعونَ) إلى المصدرِ المُنْسَبِكِ (أنْ والفعلُ المضارعُ) في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾؛

المصدرُ المُنْسَبِكُ دالٌّ على التّعليلِ والتّوكيدِ؛ فهوَ عِلّةُ خوفِهم مِن عذابِه وبَطْشِه

(1) النّحّاس، معاني القرآن: 3/309.
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 1/476.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/260.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.

لدلالته على التّعليلِ والتّوكيدِ[1]؛ أي: أن يفتنهُم بالعذابِ والقَسْوةِ والبطشِ؛ فهو عِلَّةُ خوفِهم منهُ. فضلًا عن دلالة المصدر المُنْسَبِكِ (أَنْ يَفْتِنَهُمْ) على إرادة حَدَث الفتنة، دونَ ملابساته وكيفيّاته.

دلالةُ الفتنةِ في الآيةِ:

الـفـتـنـةُ هنا الابتلاءُ والعذابُ والشّدّةُ

قولُه تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: أن يبتليَهُم ويُعذِّبَهُم، والأصلُ في الفَتْنِ: تعريضُ الذّهبِ للنّارِ لتتبيّنَ جودتُهُ من رَدَاءته، واستُعملَ في الإنسانِ مجازًا بقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذّاريات: 13]، وهو هنا بمعنى الشِّدَّةِ والبلاءِ المُتحَصّلِ من فرعونَ عليهم[2].

الـفـتـنـةُ هي الابتلاءُ الشّديدُ حـمـلًا عـلى الشّيءِ أوْ تَرْكِه

و(الفتنةُ) بمعنى التّعذيبِ والإرهاقِ، ويُستعملُ (الفُتُونُ) للابتلاءِ والاختبارِ؛ حَمْلًا على الشّيءِ أو تركًا لهُ، واستعملهُ الجبابرةُ كفرعونَ في الاضطهادِ والتّعذيبِ؛ للارتدادِ عنِ الدّينِ وطريقِ الحقِّ بكثرةٍ[3].

التّعبيرُ عنِ الفتنةِ بالمضارعِ:

التّعبيرُ بالمضارعِ يُفيد ديمومةَ إكـراه فـرعـونَ لهم على اتّباعِه

عبّرَ عنِ الفتنةِ في قولِه تعالى: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ بالفعلِ المضارعِ، وهو الدَّالُّ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، على إرادةِ "أن يُكرِهَهُم على استدامَةِ ما هم عليهِ"[4]، من متابعتِه واتّخاذِه إلهًا دونَ اللّه.

حَذْفُ فاعلِ الفتنةِ:

كـلُّ ظـالـمٍ يستمدّ ظُلْمَهُ وجـبروتـهُ مِـن فرعونَ

حَذَفَ الفاعلَ في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾، فلمْ يَقلْ: (أن يفتنوهُم)؛ كي يكونَ فعلُ الفتنةِ شاملًا فرعونَ ومَلَأَهُم؛ فإنّ الخوفَ منَ الملأِ سببُهُ فرعونُ، فكلُّ ظالمٍ مُتجبِّرٍ عاتٍ في دولةِ فرعونَ إنّما يستمدُّ ظُلْمَهُ من فرعونَ وطُغيانِه[5].

(1) الهلال، تفسير القرآن التّريّ: 11/126.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 6/159.
(3) رضا، تفسير المنار: 11/384.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 2/446.
(5) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/129.

توجيهُ ذِكْرِ ضميرِ الفتنةِ بالمُفرَدِ:

في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أسندَ فعلَ الفتنةِ للمُفردِ بمعنى: يصرفُهم عن دينِهم بالتّعذيبِ والتّرويعِ. ولمْ يُسندْه للجمعِ؛ لأنَّ فيهِ إخبارًا عن فرعونَ وقومِهِ؛ فقومُهُ كانوا على مثلِ ما كانَ عليهِ فرعونُ نفسُه[1]، فقد مالَؤُوهُ وناصروه، حتّى أصبح فعلُهم واحدًا.

في الإفرادِ إخبارٌ عن فرعونَ وقومِهِ، إذْ كانوا على مثلِ ما كان هو عليه

ولمّا أنكرَ المَلَأُ دعوةَ مُوسى ﷺ؛ مخافةَ أنْ يسلبهُمْ فرعونُ الرّياسةَ، جُعلَ الخوفُ مِنْ فتنتِهِ وعذابِهِ مُنحصرًا في فرعونَ؛ فكانتْ إشارتُهُ إلى ذلكَ المعنى بوَحْدَةِ الضّميرِ بقولِهِ: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾[2].

وَحْدَةُ الضَّمير تُشير إلى انحصار الفتنة في فرعون

وفي إسنادِ فِعْلِ الفتنةِ إليهِ دونَ سواهُ في قولِه: ﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ إيماءٌ إلى أنّ فرعونَ في حقيقتِهِ هو الآمرُ والنّاهي، وغيرُه تَبَعٌ لهُ[3]، فهو مَنْ "قَطّعَ أيديَ المؤمنينَ وصَلَّبَهم في جُذُوعِ النّخلِ، فنُسبَتِ الفتنةُ إليهِ دونَ مَلَئِهم"[4]، ولذلك قرَّر القرآنُ الكريم إمامَة فرعونَ لأتباعه، وقيادَتَه لهم يومَ القيامة إلى النّار، فقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ [هود: 98].

فرعون هو الفاعلُ في الحقيقةِ، وغيرهُ تَبَعٌ لهُ

وفي التّعبيرِ بضميرِ الواحدِ ﴿يَفْتِنَهُمْ﴾ لا الجمعِ (يفتنوهُم) مَلْحَظٌ دقيقٌ، ومَغْزًى عميقٌ، وهو أنَّ الزّبانيةَ ومَن لفَّ لفَّهم لا يُمارسونَ التّعذيبَ والقَهْرَ شَهْوةً مِن عندِ أنفسِهم، بل تنفيذًا لشهوةِ الفرعونِ[5] ونزعاتِه النّفسيَّةِ المريضةِ.

في تعذيبِ الزَّبانيَةِ إرضاءٌ لرَغبة فرعونَ

سِرّ التّوكيدِ بـ (إنّ) والجملةِ الاسميَّة واللّام:

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أكّدَ الجملةَ بـ ﴿إِنَّ﴾ اهتمامًا بتحقيقِ جبروتِ فرعونَ وبَطْشِهِ، كما أنَّ عُلُوَّهُ مستعارٌ

التّوكيدُ للاهتمامِ بتحقيقِ بَطْشِ فرعونَ ونَفْيِ توقُّعِ إيمانِه

(1) النّعلبيّ، الكشف والبيان: 14/263.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(3) المُنتجب الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 3/416.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(5) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 10/6149.

لاستبدادِه وغَلَبتِه وقَهْرِه[1]، والتّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ واللّام فيه دلالةٌ على الثّباتِ والاستقرارِ؛ فإنَّ فرعونَ لمْ يكنْ مُتنازلًا عمّا كانَ فيهِ مِن عُلُوٍّ وطُغيان، ولمْ يكنْ ليُؤمنَ ذاتَ يومٍ.

وجهُ تكرارِ اسم ﴿فِرْعَوْنَ﴾:

التّكرار والإظهار ترسيخٌ لشناعة الوصْفِ والفعل، وتنفيرٌ منهما

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ﴾ إظهارٌ في محلّ الإضمارِ؛ فقدْ كَرّرَ ذِكْرَ ﴿فِرْعَوْنَ﴾ بعدَ ما صرّحَ به قبلَهُ في قولِه: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ﴾، والغرضُ مِن ذلكَ: زيادةٌ في البيانِ، وتقويَةٌ للمعنى وتحقيقُهُ؛ لقصدِ التّخويفِ منهُ، والتّنفيرِ مِن أفعالِه؛ وأنّ مجرّدَ ذِكْرِهِ كافٍ في تصوُّرِ ما يكونُ منه، مِن تجبُّرٍ وطُغيان وعَنَتٍ وفساد[2]؛ ولأنّ ما بعدَه مُعتمِدٌ عليه من عُلوّهِ وإسرافِه. وفي الإظهارِ والتّكرارِ في مواقفِ التّجبّرِ والتّكبّرِ والطُّغيان، مزيدُ ترسيخٍ لشناعةِ فعلِه، وقبيحِ وَصْفِه.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (العُلوّ):

المُستبدّ القاهرُ كأنّهُ مُستَعلٍ على مَقهورِهِ مُتمكِّنٌ منهُ

في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ استعملَ العُلوَّ للغلبةِ والقهرِ والاستبدادِ استعمالًا مجازيًّا[3] مِن بابِ الاستعارةِ؛ فالمستبدُّ القاهرُ كأنّهُ مُستَعلٍ على مقهورِهِ متمكِّنٌ منهُ.

تخصيصُ العلوّ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لكثرةِ ما في أرض مصرَ مِنَ المرافقِ، وكأنّها جميعُ الأرضِ

تخصيصُ العلوّ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ومعناهَا أرضُ مصرَ؛ وذلك لكثرةِ ما يوجدُ فيها مِنَ المرافقِ والبُنيانِ كأنّها الأرضُ جميعًا[4].

توجيهُ الحاليَّةِ في جملةِ: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لمْ يصدَّهم عنِ الإيمانِ خوفُهم من فرعونَ

جملةُ: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ حاليَّةٌ، والمعنى: إنَّ فرعونَ لعالٍ في حالِ خوفِهم الّذي يتمكّنُ منهُم، وفي هذا ثناءٌ ومدحٌ لهم؛ فلم يصدَّهم عنِ الإيمانِ خوفُهم مِن فرعونَ وبَطْشِه[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/261.
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/858.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 6/159.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/176.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/259.

فائدةُ التَّعليلِ في الجملةِ:

إنّهمْ مُحِقُّونَ في خوفِهِمُ الشّديدِ

الجملةُ الدَّالةُ على علوِّ فرعونَ جملةٌ تُفيدُ معنى التّعليلِ؛ لخوفِهم من فرعونَ وطُغيانِهِ، فهُم على حقٍّ في خوفهم، بعدَ أن أثنى على إيمانِهِمْ معَ حالِ خوفِهم الشّديدِ، الّذي تتطرّقُ آثارُه جميعَ أحوالِ المرءِ بما فيها خَلْوَتُهُ؛ لشِدّةِ مُلابَسةِ قومِه إيَّاهُ، فلا يجدُ مَفرًّا منهم[1]، والقرآن في ذلك يُثبت وجود الخوف كحقيقة وغريزة بشريَّة لا يمكن إنكارها، ولا تنفي وجودَ الإيمان، ولكن هناك مَن يملك شجاعةَ المواجهة مُتحدِّيًا غريزتَه مُستعليًا عليها، حتَّى إنّ موسى وهارون أنفسَهما ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [طه: 45].

تكرارُ التَّوكيدِ في جملةِ الفاصلةِ:

حشدُ المؤكّداتِ في السّياقِ لمزيدِ التَّنفيرِ مِن فرعونَ ومُرتكباتِهِ

ختمَ الحقّ سبحانَه الآيةَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ مُكرِّرًا التّوكيدَ بـ (إنّ، واللّام، وجمعِ السّلامةِ)[2]، وهو توكيدٌ يُفيدُ معنى الاختصاصِ، أي: إنَّه لا غيرُه، وجمعُ السّلامةِ في انتظامه في الجملةِ الاسميَّة يدلّ على الثّبوتِ، أي: ثبوتِ الإسرافِ عندَ فرعونَ[3]، ثمّ إنّ حشدَ المؤكّداتِ في السّياقِ جاءَ لبيانِ تمامِ الاعتناءِ بمضمونِها، ومزيدِ عنايةٍ بالتّنفيرِ مِن فرعونَ ومرتكباتِه.

بيانُ العدولِ مِنَ التّصريحِ باسمِ فرعونَ إلى ضميرِهِ:

التّعبيرُ بالضّميرِ جارٍ مجرى الكنايةِ المفيدةِ الإيجازَ

في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عُدُولٌ مِنَ التّصريحِ باسمِ فرعونَ إلى ضميرِهِ؛ فهو جارٍ مجرى الكنايةِ الّتي تفيدُ الاختصارَ والإيجازَ والإجمالَ، المُغنيَةِ عن طولِ الاسمِ، وهو أبلغُ وأوكدُ مِن ذِكْرِهِ. فضلًا عمّا في العُدُولِ مِنَ التَّلميحِ إلى تخصيصِ الحديثِ عن صفاتِ فرعونَ وخصالِه وأفعالِه، وليس عن شخصِه، لتكتملَ صورةُ الكلامِ عليه شخصًا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/260.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الزّيّ: 11/126.

دلالةُ ﴿لَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

فرعون مِن جملةِ الّذين دأبوا على الإسـرافِ قتلًا وإفسادًا وتكبُّرًا

﴿لَمِنَ﴾ في قولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ دالَّةٌ على التَّبعيضِ؛ فإنّ فرعونَ مِن جُملةِ الّذين داوموا على الإسرافِ، وهوَ مجاوزةُ الحَدِّ في الظُّلمِ، قتلًا وإفسادًا في الأرضِ، كما كانَ مُبالغًا في الكِبْرِ والتَّجبُّرِ والاستعلاءِ[1].

براعةُ العُدولِ مِنَ الوصفِ (إنّه لمسرف) إلى ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾:

الإخبـارُ عن فـرعـونَ بـأنّـهُ واحدٌ مِن طائفةِ المُسرفينِ أبلغُ

عدلَ عن قولِه: (وإنّهُ لمسرفٌ) بالإفرادِ إلى قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ لأنّ الثّاني أبلغُ في وَصْفِه بالإسرافِ[2]؛ لكون التّعريف في ﴿ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ تعريفَ جنسٍ؛ فيكونُ خبرًا عن فرعونَ بأنّه واحدٌ مِنَ الطّائفة المعروفةِ عندَ النّاس بأنّها طائفةُ المسرفينَ، وهو من قبيلِ الكنايةِ بإثباتِ الشّيءِ عن طريقِ إثباتِ مَلزومه، وهو أبلغُ مِنَ التّصريح، وهو كقولهم: "فلانٌ مِنَ العلماءِ، أبلغُ من قولكَ: فلانٌ عالمٌ؛ لأنّكَ تشهدُ لهُ بكونهِ معدودًا في زُمرتهِمْ، ومعروفةً مساهمته لهم في العِلْمِ"[3].

وفي قوله ﴿لَمِنَ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ فرعون ليس شخصًا تنتهي أباطيلُه وبَطْشُه وجبروتُه بموته؛ إنَّما هو فكرة مُتجدِّدة؛ وكما قالوا قديمًا: لكلِّ زمانٍ فراعينُه.

في الجمعِ إثباتُ الذّمّ على فرعونَ بأنّه مِن أهلِ الإسـراف العَريقِينَ

ولإيرادِه جمعًا مَلْحَظٌ آخرُ، ففي قولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ١٣٦﴾ [الشُّعراء: 136] لم يقل: (أوعظتَ أم لمْ تعظْ)؛ مع أنّه أخصرُ وأوجزُ، والمعنى واحدٌ.

والجوابُ عن ذلكَ: أنّ بينهمَا فرقًا في المعنى؛ "لأنَّ المُرادَ سواءٌ علينَا أفَعَلْتَ هذا الفعلَ الَّذي هو الوعظُ، أمْ لَمْ تكنْ أصلًا من أهلِهِ

(1) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 4/129.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/261.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/331.

ومباشرته. فهو أبلغُ في قلّةِ الاعتدادِ بوعظِه مِن قوله: أَمْ لَمْ تعظْ"[1]؛ فالمعنى هنا إثباتُ المَذَمَّة على فرعونَ، وأنّهُ مِنَ الزُّمرةِ المعروفةِ المعهودةِ بالإسرافِ، وأنّهُ مِن أهلِها العريقينَ فيها، فهوَ أبلغُ مِن نعْتِه بالإسرافِ مُفرَدًا.

مناسبةُ وصْفَي: (العلوّ، والإسراف):

ختمَ الحقّ سبحانَهُ الآيةَ بصفتيْنِ مِن صفاتِ فرعونَ المذمومةِ؛ الأولى: صفةُ العُلوّ بقولِه: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. والثّانيةُ: صفةُ الإسرافِ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾، وفي الجمعِ بينهمَا مناسبةٌ؛ وهيَ أنَّ كِلَا الوصفيْنِ ممّا يمنعُ الاستجابةَ لدعوةِ مُوسى عليه السلام، وممّا يصدُّ عنها، فالعُلوُّ وَصْفٌ ذَميمٌ يُشعِرُ المُتعالي أنّهُ فوقَ النّاسِ جميعًا، وأنّهُ ليسَ مِن جنسِهِمْ وطينتِهِمْ، والمسرفُ مُغالٍ في كلِّ شيءٍ عُتُوًّا وفسادًا[2].

كِلَا الوَصفيْنِ ممّا يمنعُ الاستجابةَ لدعوةِ مُوسى عليه السلام ويَصُدُّ عنها

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

العُلُوُّ والصُّعود والرُّقِيُّ والعُرُوجُ:

الصُّعود مقصور على الارتفاع في المكان، ولا يُستعمل في غيره، والارتفاع والعُلُوُّ يُشترط فيهما جميع ذلك[3]. أمَّا الفرق بينَ الرُّقيِّ والصُّعودِ: فالرُّقي أعمُّ مِنَ الصُّعود؛ ألَا ترى أنَّه يُقال: رَقِيْتُ في العِلْم والشَّرَف إلى أبعد غايَةٍ، ورَقِيَ في الفَضْل، ولا يُقال في ذلك صَعَد. فالصُّعود مقصورٌ على المكان، والرُّقِيُّ يُستعمل فيه وفي غيره، فهو أعمّ[4]، زِد على ذلك أنَّ مِن معاني العُلُوِّ التَّجبُّر والطُّغيانُ في الأرض، وتجاوزُ الحدودِ المعهودةِ في الظُّلم والعُدْوانِ. والعُرُوج صعودٌ بتَأنٍّ. ومن هاهنا اصطُفِيَ في سياق الآية ليُناسبَ وَصْفَ فرعونَ بالتَّجبُّر والطُّغيان.

من معاني العُلُوِّ التَّجبُّر والطُّغيان في الأرض، وهو يناسب وَصْفَ فرعونَ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/327، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/263 - 264.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3623.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 314.
(4) العسكريّ، معجم الفروق اللّغويّة، ص: 259.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»